جولات ومشاهدات

فى مدينة الأزهر

بقلم الأستاذ م . محمد عبد الكريم

الدرّاسة والحسين . . :

وأهوى حوذى السوارس على بغليه بالسوط ، وسارت العربة ترنح بما حملت من ذوات البراقع السود وخليط من لابسى الطواقى واللاسات والمعممين والمطربشين تجتاز بنا شارعى المغربلين والغورية فى طريقها الى حى الحسين .

وجعل صديق يشرح معالم ما حولنا من الأبنية الأثرية :

هذه بوابة المتولى أو باب زويله الذى شنق عليه طومان باى نائب السلطان الغورى حين غدر به السلطان سليم بعد أن أمنه على حياته ووقف منه على مايهم لإدارة شؤون البلاد ، وذلك مسجد السلطان الغورى الذى قضى وهو يدافع عن مصر ومات تحت أقدام الخيل فى مرج دابق .

وسكت صاحبى فجأة . قلت ما أسكتك ؟ . قال وهو يهز رأسه : يالها من أيام ... أتذكر حين كنا نجوب هذا الحى كل يوم فى طريقنا الى مدرستنا الابتدائية خليل أغا... تأمل : هذا محل الراعى ... وذاك محل السرجانى الصائغ ، وأمامك العطبان بائع المقصبات ... كل منها لازال بمكانه كما كان منذ عشرين عاما ولكن أين عبد الكريم حسن الحلوانى وأين الحمصانى بجبته الزاهية وعمامته المتبرجة ؟ وأين الحاج كاظم الذى كان يدير مقصف مدرستنا ، . بل أين المدرسة ذاتها ؟ . لقد هدمت فيما هدم لتوسيع الأزهر ... قلت : هى الدنيا لا تلبث على حال ، جيل يغدو وجيل يروح ، وديار تبنى وأخرى تزول ... وسبحان من له الدوام .

ووقفت أمام بناء الأزهر الشامخ أتأمل جديده وقديمه . ومال علىّ صاحبى يسألنى هل سأعرض للأزهر فى مقال؟ قلت نعم . قال : هذا باب يخشى الكثيرون طرقه . قلت : اطمئن يا أخى فنحن نكتب ما نشاهد ، فإن أشرنا إلى نقص فلا غاية لنا الا تلافيه ، وان من نعم الله على البلاد أن ولى على الأزهر خير من ينهض بأمره و يعنى بتحقيق كل مافيه إصلاحه .

وصعدت الى ادارة الأزهر قاصدا التشرف بمقابلة فضيلة الشيخ الأكبر فلم يسعدنى الحظ بلقائه اذ كان فى عمل خارج الدار . فاكتفيت بمقابلة الأستاذ خالد بك حسنين كبير المفتشين الذى قدم الى رسالته فى " التجديد فى الأزهر " وهى رسالة قيمة أثارت لى سبيل البحث الى حد بعيد .

فى أروقة الأزهر :

كان درس اليوم قد انتهى ، وأبى بعض الطلبة الشوام فى نخوة عربية الا أن أصحبهم الى الرواق ، ويقع رواق الشوام فى الناحية القبلية للجامع ، ويقابله شارع الأزهر الذى استبدل باسمه اسم شارع الشيخ محمد عبده ، وشارع البيطار الذى يحمل اليوم اسم المقريزى وهذا التبديل حسنة نذكرها لمصلحة التنظيم ونرجو أن تدير فى كافة الأحياء على هذا النهج الصالح .

ويضم رواق الشوام خمسة وستين طالبا فى ثلاث عشرة حجرة ، جلست الى بعضهم بين أسرتهم المتواضعة وأمتعتهم البسيطة ، ومضوا يصفون لى حياتهم ومدى المساعدة التى ينالونها من الأزهر . فعلمت أن الطالب منهم يتقاضى ثلاثين قرشا كل شهر يضاف اليها مايرسله له ذووه ، كل حسب حالته . وقد شكوا الى إغفال نظافة الرواق وتساقط الماء أحيانا على أمتعتهم . والحق أنى لمست صحة هذه الشكوى . فالحجرات والطرقات تدل حالتها على أن فرشاة الطلاء لم تمسها منذ أمد بعيد ، ودورة المياه لا تكاد ترى ما فيها لفرط ظلمتها . وقد سألت الطلبة هل يأتيكم زائرون غرباء ؟ قالوا : كثير ، وقد زارنا أخيرا أستاذ بجامعة أكسفورد فما أن بلغ سرداب الدورة حتى وقف عن السير وعاد أدراجه .

وانتقلت الى رواق الاتراك والمغاربة فوجدتهما لايختلفان فى شىء عن رواق الشوام .

وطلبة الأزهر الغرباء يعتمدون على أنفسهم فى كل شىء إذ يتولون إعداد طعامهم وتنظيف حجراتهم بأيديهم ، وهم فى صلاتهم بعضهم ببعض مثل حى فى التعاون والتراحم .

فى المبانى الجديدة :

طيب الله برحمته ثرى مليكنا الراحل فؤاد الأول وحفظ للبلاد شبله العظيم . هذه مبانى الأزهر الجديدة أثر من آثاره ، وهى نواة مدينة الأزهر : عمارات ثلاث شيدت على طراز عربى جميل ، تضم جوانبها معهد القاهرة بقسميه الابتدائى والثانوى ، وتستخدم الطبقة الأرضية منها مساكن لفريق كبير من الطلاب الغرباء .

قصدت إلى الغرباء فى مساكنهم وبدأت بأبناء اليمن وعدن . دخلت عليهم وكانوا يتناولون الشاى فأبوا إلا أن أشاركهم فى شرابهم وسألت كبيرهم : هل أنتم واجدون راحتكم فى هذه الديار ؟ فقال : نشكر إخواننا المصريين على كل حال . وأدركت من عبارة الرجل

أن بنفسه ما يخفيه . قلت ما يقلقك ياصاح ؟ قال . نحتاج إلى عناية، ينقصنا فراش لخدمة حجرتنا ، والإنارة فى هذه الغرفة كما تراها مصباح كهربائى واحد اشتراه أحد الطلبة من ماله الخاص بعد أن طالبنا كثيرا بالمصابيح، ونحن فى المساء تتزاحم حول النور وكثيرا ماتؤدى هذه الحال إلى الخلاف . هذه شكوى اليمنيين أثبتها و يقينى أن إجابة الطلبة الى مطلبهم أمر هين على إدارة الأزهر التى لانشك فى عطفها على الغرباء خاصة .

وانتقلت إلى مساكن الصينيين فقابلنى أحدهم فأنبأته بغايتى، فهز رأسه دون أن ينطق بشىء، ومضى إلى خزانة كتبه وجاءنى بكتابين، أحدهما عن الحرب اليابانية الصينية والآخر رسالة من بعثة الإخاء الصينية الى العالم الإسلامى . ثم عاد الى كتاب أمامه فأخذ يقلب فى صفحاته حتى وصل الى صورة وضعها أمامى وقال بكلمات بطيئة متقطعة وهو مشير الى الصورة بأصبعه "الإسلام يعتز بهذا" وكانت الصورة صورة مليكنا الفاروق أعزه الله الذى يتولى الانفاق من جيب جلالته الخاص على بعثات البلاد النائية ومنها البعثة الصينية التى تحمل اسمه الكريم تيمنا وتقديرا .

وطرقت بابا مجاورا لحجرة صاحبنا الصينى فإذا بى بين فريق من الطلبة التركستانيين .

شباب يتقد ذكاء ورغبة فى العلم . حدثنى أحدهم فى طلاقة عن التركستان بالأمس ومآلت اليه اليوم تحت نظام الحكم الشيوعى . قلت إذا كانت بلادكم فى هذه الأيام لاتدين بدين فأين تطبقون أصول الدين الذى تتعلمونه ؟ قال : فى المهجر، فى الهند وفى غير الهند حتى يقضى الله فتزول الشيوعية من بلادنا .

وأبناء التركستان موفدون الى مصر تحت رعاية الجمعية التركستانية للمهاجرين بالهند، وقد تكفلت بنفقات انتقالهم الى هذه الديار، وهم يعيشون مما يجريه عليهم الأزهر من الأرزاق : جنيه واحد لكل طالب ، ولا ندرى كيف يكفى هذا الجنيه لسد مختلف الحاجات .

عصبة الأمم الاسلامية :

يضم الأزهر وملحقاته بالقاهرة من الطلبة الغرباء ما يزيد على الستمائة طالب ينتمون إلى ست وثلاثين دولة . وأكثر الغرباء عددا المغاربة من أبناء طرابلس وتونس ومراكش والجزائر ، ويليهم الشوام فالسودانيون فالأتراك فالجاويون . وبين الطلبة عدد غير قليل من الأحباش واليمنيين والصينيين والنيجيريين والأكراد والتركستانيين والعراقيين والحجازيين . وهناك طلبة من الهند والأفغان ودارفور ومن جنوب افريقيا ومن اليابان .

وقفت فى طرقات مساكن الغرباء وكأنما وقفت بعرفات... شباب وشيوخ اختلفت أشكالهم وتباينت لهجاتهم ، تركوا بلادهم النائية وقصدوا إلى بحر الأزهر الزاخر يرتشفون من منهله ويغترفون من فيضه .

هذا الجيش من الطلاب سوف يعود أفراده كل إلى وطنه حاملا ذكرياته عنا ناقلا ما شاهده فى ربوعنا . وهؤلاء جميعهم ألسنة دعاية ستكون لنا أو علينا فما أولانا بإكرامهم وما أحرانا بمساعدتهم والترفيه عنهم .

أقول هذه الكلمة لا لإدارة الأزهر وحدها ؛ فقد يقال إنها تؤدى ما عليها فى حدود ماليتها ، وإن كنا نظن أن إزالة أسباب شكوى الغرباء فيما يتعلق بالخدمة والانارة لن يرهق الميزانية فى شىء ، وإنما أتوجه بكلمتى أيضا الى أبناء الأمة وخاصة شبابها . أسأل الشباب أن يزوروا الطلبة الغرباء فى مساكنهم ، وأن يتعرفوا اليهم ويعملوا ما استطاعوا لمعونتهم . وإن أمنيتى هذه لتكبر كلما ذكرت أن بين الغرباء اليوم من انقطع مورده بسبب حالة الحرب القائمة فأصبح فى عسر شديد . وقد شاهدت بعينى رأسى آثار البؤس والفاقة بادية على الكثيرين . وقد تحدثت الصحف طويلا عن حالهم وقام بعض ذوى النخوة من علماء الأزهر بتأليف لجنة لجمع التبرعات لهم ، ولكن ما جمع لازال يسيرا جدا فواجبنا جميعا أن نمد الى هؤلاء يد المعونة ، فليس أحق بالعطف من طالب علم يعوزه القوت وهو غريب .

التجديد فى الأزهر :

إن زائر الأزهر اليوم ليأخذه العجب لما وصل اليه الأزهر من تقدم واصلاح سواء فى قوانينه وأنظمته أو فى بنائه وأمكنته .

تقدم الأزهر بفضل رعاية الأسرة العلوية الكريمة وعناية رءوسها من ولاة وملوك — ففى سنة ١٨٧٢ صدر أول قانون ينظم نيل الشهادة العالمية ، وأتبع هذا القانون بآخرين أحدهما عام ١٨٩٧ والثانى عام ١٩١١ ، وقد تناول الأخير الدراسة وجعلها مراحل ذات نظم خاصة وعلوم معينة وزاد فى مواد الدراسة وحدد اختصاص الشيخ الأكبر ، وأنشأ هيئة تشرف على الأزهر وهى مجلسه الأعلى .

فلما ولى المغفور له الملك فؤاد الأول — وكان أفقه الناس برسالة الأزهر وما لهذه الجامعة من بالغ الأثر فى المحيط الاسلامى — أمر رحمه الله بمراجعة أنظمة ذلك المعهد الكبير وقوانينه وكان ما أراد ، فوضع للإصلاح قانونان صدر أحدهما عام ١٩٣٠ وصدر الآخر عام ١٩٣٦ ، وقد قسم التعليم بموجبهما إلى مراحل ابتدائية وثانوية وعالية ، وأدخلت العلوم الحديثة فى شكل أوسع ، ونظمت كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية ، وأعدت أقسام لإجازات القضاء الشرعى والدعوة والإرشاد والتدريس وأخرى للتخصص .

وقد كان من مآثره رحمه الله أن أمر بإصدار مجلة تنطق باسم الأزهر ، وهاهى اليوم تحمل اسم " مجلة الأزهر " وقد بلغت بفضل رعاية فضيلة الشيخ الأكبر وعناية رئيس تحريرها الفاضل الأستاذ محمد فريد وجدى شأوا كبيرا فى مصر وفى العالم الاسلامى كله .

وقد اقترن التجديد فى الأنظمة بتجديد آخر فى الأبنية ، فعمل جلالة المليك الراحل على إنشاء مدينة الأزهر ، وترسم مليكنا الفاروق حفظه الله خطوات والده الموفقة ، فرعى بعنايته مشروعات التجديد ، ونزعت ملكية الأرض المحيطة بالجامع لإنشاء قاعة للاحتفالات ومكتبة ومستشفى للطلاب . ولم تقف جهود الفاروق عند توجيه الحكومة إلى هذا النهج الصالح بل شاء أن يبذل من جيبه الخاص فى سبيل الاصلاح ما يذكر له دواما بالشكر والاعجاب إذ فرش الجامع بسجاد فاخر ، وأمد البعوث الوافدة من أقطار نائية بمساله وأسبغ عليها الكثير من فيض رعايته .

آراء لخير الأزهر :

على أننا مع تقديرنا لما بذل فى الأزهر من عناية وبخاصة فى العهد الأخير ، نرى أن هناك نواحى كثيرة لا زالت تفتقر إلى علاج ، نوردها مخلصين ومقسطين ، فالأزهر باعتباره جامعة عالمية ما مكانتها السامية ينقصه :

أولا — الروح الجامعية . وخلق هذه الروح منوط بإدارة الأزهر اذ عليها أن تمهد سبيل الاتصال بين الطلبة والمدرسين بإعداد محاضرات يلقيها أساتذة الأزهر و بعض ذوى الرأى من مصريين وغير مصريين فى كل ما يهم الطالب الجامعى من أسباب الثقافة العامة ، وأن تنظم الحفلات لتوزيع الإجازات العلمية على الطلاب ولاستقبال ذوى الشخصيات الكبيرة من المسلمين الأجانب والمستشرقين الذين يفدون إلى هذه البلاد . والى أن تبنى قاعة الاحتفالات يمكن اتخاذ مقر جمعية اسلامية كالشبان المسلمين مثلا مركزا لنشاط الأزهر الثقافى . كذلك ينقص الأزهر بكامعة اتحاد يشرف على ناد يختلف اليه الطلبة و يكون واسطة للتعارف بينهم وبخاصة لأن منهم أغرابا يحتاجون إلى توثيق الصلات بإخوانهم المصريين . وليسظم هذا الاتحاد رحلاتهم الى داخل البلاد والى الخارج وبخاصة إلى الاقطار الشرقية .

ثانيا — أن يعنى بتنمية الروح الرياضية فى المعاهد والكليات فتعد أدوات الرياضة ويدرب الطلبة وتنظم الفرق فى مختلف فنون الرياضة ، ليكون لطلبة الأزهر نصيب فى المباريات الدورية وخاصة أنهم أثبتوا فى حركة التدريب العسكرى نشاطا يذكر وكفاءة تشكر .

ثالثا — لكى تمشى الجامعة الأزهرية فى نشاطها الثقافى والرياضى مع مقتضيات العصر وتقتبس من كل جديد ما يفيد ، نرى أن توكل نواحى النشاط المدرسى فيها إلى الأساتذة الذين أوفدوا فى بعثات إلى أوربا ، فهؤلاء أصلح لرعاية التجديد والأخذ بأسباب الاصلاح ، وأن يكون هناك اتصال دائم بالاخصائيين برجال المعارف وجامعة فؤاد الأول .

رابعا — أن تضاعف العناية بخدمة الجامع والأروقة سواء بزيادة الخدم أو بالتشديد عليهم حتى لا تقع عين الزوار ، وهم كثيرون وجلهم من الأجانب ، إلا على كل مرتب

ونظيف، وأن يعنى بإنارة الأروقة ومساكن الطلبة، وأن تطلى جدرانها فى أوقات متقاربة وأن يكلف الخدم تنظيفها لا أن يترك الأمر للطلبة ، فنظافة المكان أمام الزائر الأجنبى تزيد عزتنا وترفع من كرامتنا .

وأما الأزهر كمركز للدعوة الاسلامية فى العالم فيحتاج للنهوض برسالته الى أسباب :

الأول — زيادة الاهتمام بإيفاد البعوث من علماء الأزهر الى البلاد النائية لنشر الدعوة الاسلامية وخاصة فى آسيا وأواسط وجنوب أفريقيا . ففى هـذه الاصقاع يلقى الاسلام إقبالا كبيرا ويكفى للتدليل على ذلك أن نشير الى ما ذكره الأستاذ شميتز (Schmitz) فى كتابه " الاسلام فى الغد " من أن الاقبال الذى يلقاه الاسلام فى هذا العصر فى أفريقيا وفى آسيا منقطع النظير حتى أنه لم يدع مجالا لدين سواه هناك .

ونحن لا نعرف أن للأزهر مندوبين فى أفريقيا إلا مبعوثه فى مسجد جوبا بجنوب السودان، على أن هذا المبعوث الواحد قد تمكن من الحصول على نتائج باهرة فى الدعوة التى يقوم بها.

الثانى — أن يستعين الأزهر أيضا فى الدعوة بجهود الغرباء من طلبته عند عودتهم إلى بلادهم وخاصة أبناء نيجيريا والسودان والهند والتركستان والصين وبولندا ، وأن تكون إدارة الأزهر على اتصال دائم بالطلبة بعد رجوعهم إلى أوطانهم ليطلعوها على مبلغ جهودهم .

الثالث — أن يكون تدريس اللغات الأجنبية إجباريا فى جميع كليات الأزهر لا اختياريا كما قضى بذلك قانون عام ١٩٣٦ الذى لا يلزم بها إلا طلبة كلية أصول الدين ، فاللغات مفتاح كل ثقافة .

الرابع — أن تصدر أعداد خاصة من مجلة الأزهر ولو مرة كل عام باللغة الانجليزية أو الفرنسية وترسل إلى الجامعات الأوروبية والأمريكية لتعرف الشبيبة المستنيرة هناك شيئا صحيحا عن الأزهر وعن الاسلام ، ولا نرى ما يدعو لوجود المذمة الانجليزية التى تطبع فى كل عدد إذا أصدر العدد الخاص .

قوام الإصلاح :

إن تعليم ما يقرب من الأربعة عشر ألف طالب والنهوض برسالة ثقافية ودينية من جامعة لها مكانها الأسمى فى جميع الأقطار وإمامة الحركة الفكرية الإسلامية فى العالم كل ذلك يتطلب المال . لذلك نرى لزاما علينا إذ نعرض لإصلاح الأزهر أن نتوجه إلى أولى الشأن فى البلاد راجين العمل على زيادة موارد الأزهر وإمداده بالمال ليقوى على النهوض برسالته وليسير فى طريق التجديد بما يرفع شأن مصر ويعلى قدرها بين أمم الأرض .

م . محمد عبد الكريم